بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

موضوع هذا الكتاب جدير بالدراسة المتأنّية والفكر المتريّث لأنه يتصل بعقل الإنسان وقلبه .. وهل الإنسان إلا عقل وقلب ؟

أما صورة اللحم والدم فهى إطار محدود ، وهذا الإطار يشترك فيه الإنسان مع مخلوقات هى أدنى رتبة بيقين .

وقد شاعت النزعة الإنسانية فى عصرنا وأضحت - محلياً وعالمياً - موضع التقدير ، بل أضحى الانتساب إليها أجدر بالتقديم من الانتساب إلى بعض الأديان !!

ونحن نسمع الحديث عن حقوق الإنسان ، ومستقبل الإنسان ، وحاجات الإنسان .. فنصغى باهتمام لأن الأمر يعنينا يقيناً ..

ولا بأس علىّ - من الناحية الإسلامية - أن أهتم بهذا العنوان ، وأن أكترث لما يتصل بعقل الإنسان وقلبه وجسمه ، فإن الإسلام دين الفطرة ، والفطرة السليمة ترادف التدين الحق ، وترادف الإنسانية الرفيعة !

غير أنى لاحظت - كما لاحظ غيرى - أن مدلول الإنسانية جُعِل مهرباً من الانتماء إلى الله ولقائه وعبادته ، أو بتعبير أصرح : جُعِل مهرباً من الانتساب إلى الكتاب والسُنّة والتراث ومعالم الوحى .

وكلمة الإنسانية - فى المصطلح الشيوعى أو المادىّ عموماً - تعنى اطّراح الدين وإضمار الإلحاد !! إنها فى نظرنا أقرب إلى الحيوانية !!

وهل الإنسان بعد التنكر لله وكراهية هداه إلا حيوان قد يكون مستأنساً وقد يكون متوحشاً !

لكن يبقى بعد ذلك أن التدين نفسه حين يتنكر للعقل ، ويُلقى الوجدان يَسقط فى موازين الفطرة ، ولا يستحق أى ترحيب عند أُولى النُهَى !

وقد ألفْتُ هذا الكتاب لأرفض باسم الإسلام التدين المحجوب عن آيات اللّه فى الأنفس والآفاق ، التدين البليد وسط النشاط العمرانى والتقدم الحضارى .

التدين الذى انطوى علي نفسه وترك الابتداع والتفوّق لمن يكرهون اللّه والمرسلين !!

والإسلام كما أوقد مصابيح الفكر احتفى بأشواق الفؤاد واستحلى العاطفة الشريفة بل حوّل الإيمان النظرى إلى شعور جيّاش بالخشية والرجاء والتوكل الواثق والحب الإلَهى .

ومن هنا فقد أودعتُ هذا الكتاب - إلى جانب المنطق العقلى الصارم - فيضاً من أشواق الروح إلى معرفة اللّه ومعاملته وتسبيحه وتحميده ..

أي أننى تناولتُ علمىْ الكلام والتصوف من جانب آخر لعله أسدّ وأرشد .

وقد استعنتُ بنقول ربما طالت على ما يؤيد وجهة نظرى خصوصاً ما كان لعلماء الغرب وقادة فكره !

وأرجو أن يشركنى القارىء فى مطالعة هذا البحث وأن يصبر نفسه على ما قد يجد من عناء فهو دعم عظيم لديننا الحنيف فى المعركة الحاقدة التى يواجهها الإسلام الآن .

القاهرة فى غرة ذى الحجة سنة ١٤١٣ هـ

الموافق (٢٢ مايو سنة ١٩٩٣ م)

محمد الغزالى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

لستُ مستريحاً لحاضر الثقافة الإسلامية ، ولا مطمئناً على مستقبلها .

فهى - فيما أرى - لا تعطى صورة دقيقة ، ولا كاملة للإسلام ، كما جاء فى الكتاب الكريم والسُنّة الصحيحة ، وكما سار به الأسلاف العظام فى أرجاء الأرض ، فتحولت بهم إلى ربيع مزهر وحياة نابضة ...

هذه الثقافة لا تزال تحمل فى أطوائها صورة مجتمعات إسلامية معتلة ، وقضايا فكرية وعاطفية جديرة بأن تُودع فى المتاحف ، لا أن تُدفع إلى دنيا الناس ...

ومع احتواء الثقافة الإسلامية على ذلك التراث الثقيل ، فهى خالية أو فقيرة من العناصر التى تكوِّن المسلم القدير على مواجهة ذلك العصر وأحداثه ، وعلى استبطان مقادير من اليقين والحماسة والرشد والبصيرة تجعله ينطلق بدينه فى كل ميدان ، ويمد رسالته إلى كل أفق ...

قد تقول : بين ظهرانينا كتاب الله وقد تأذّن بحفظه - جلّ جلاله - ومعالم السُنّة ، وهى كذلك قد ظفرت بصيانة فريدة .

وما دام المسلمون يتوارثون هذه الكنوز ، فلن يُخشى عليهم زيغ ثقافى ، ولا محل لهذا التشاؤم الذى خامر فؤادك ...

وأقول : إن وجود هذه الكنوز بيننا لا يغير شيئاً مما ذكرت .

فإن للبترول منابع كثيرة فى بعض البلاد الإسلامية ! ومع ذلك فهم لم يحسنوا استخراجه ، ولا بناء ناقلاته ، ولا إدارة الآلات به ..

وللقطن حقول فيحاء ! ومع ذلك لم يحسنوا نسيجه ، ولا إبداع مصانعه ، ولا تزويق ألوانه .

إن المهم ليس وجود الكنوز المادية والأدبية ، وإنما المهم وجود البَشر الذين يفيدون منها .

وقد أمكن إيجاد محطات تذيع القرآن كله بين عشية وضحاها ، فامتلأ الجو بأصوات الوحى التى تذهب بدداً ؛ لأن الأمة السامعة فى واد آخر .

والثقافة التى تشرح الإسلام لهذه الأمة ، وتربطها به ، لا تضىء فكراً غامضاً ، ولا تهدى قلباً حائراً ، ولا تثبِّت قدماً وجلة !

وعندما أنظر إلى الكتب الدينية المتداولة بين الجماهير أجد فيها القليل النافع ، وأجد إلى جانبه الغثاء التافه ! بل الداء العضال !!

ومن هنا ، فإنى مرة أخرى أؤكد قلقى لحاضر الثقافة الإسلامية ومستقبلها ..

وأهيب بأولى الألباب من المؤمنين أن يتداركوا هذه الحال ، حتى يمكن تكوين أجيال صالحة تكون أوعى لدينها ، وأبصر بمطالبه ، وأقدر على خدمته ، وأمضى فى نُصرته من أتباع المذاهب والنِحَل التى زحمت الدنيا ، وشغلتها بباطل لا آخر له ...

* * *

وقد جرت عادتنا أن نمسح عيوبنا فى الاستعمار الحديث ، وأن نرد إليه ما أصابنا من كوارث عامة .

ونحن نعلم أن الاستعمار مزِّق الأمة الإسلامية شر ممزق ، وأغرق ثقافتها الذاتية فى طوفان من غزوه الذكى المنظم ...

وجعل العالَم الإسلامى مزعاً ينكر بعضها بعضاً .

فالمسلم فى القاهرة أو دمشق أو بغداد شخص تائه ، لا يعرف منبته الروحى العريق ، ولا يحس أواصر القُربَى بينه وبين المسلمين الذين يحيون على شواطىء المحيطين الأطلسى والهادى .

ونحن نعرف ما صنع الاستعمار الحقود بتراثنا الثقافى والسياسى معاً .

إلا أننا يجب أن نلوم أنفسنا لا أن نلقى باللائمة على الآخرين ...

إن هذا الاستعمار كان نتيجة طبيعية لا بد منها لأمة جهلت نفسها ، واستثقلت تكاليف اليقظة والسعى !

أمة حوّلت ثقافتها إلى ثرثرة لفظية ، وتقاليد بالية ، فما زالت تتخلف فى المضمار العالمى الرحب حتى سبقها غيرها سبقاً بعيداً ...

إننا فعلنا بأنفسنا أكثر مما فعله الاستعمار بنا ...

ومن العجز أن نلقى تبعات هزائمنا على خصومنا ! ومن حق الاستعمار أن يقول لنا : « لا تلومونى ولوموا أنفسكم » !

لقد سألتُ نفسى يوماً : كم كتاباً أُلِّفَ فى كارثة الأندلس . وسبب ضياع الإسلام منها ؟

فكان الجواب مفزعاً !

وسألتُ نفسى : أللمسلمين « جهاز » فكرى أو روحى أو سياسى يحسب أرباحهم وخسائرهم مع سير القرون وإطراد الزمان ، ويشخص العلل ، ويرصد التجارب ، ويحصى النتائج ؟

فكان الجواب مفزعاً !

لطالما قلت : إن العالَم الإسلامى أشبه ما يكون بشخص أصيب بفقدان الذاكرة ، فهو لا يدرى شيئاً عن ماضيه الرائع !

على أن التساؤل يجب أن يتجه إلى ما هو أدنى من ذلك وألصق بحقيقة هذه الأمة .

إن هناك مئات الكتب فى التفسير والحديث والفقه والأدب والتاريخ مخلوطة بسموم ناقعة ، وخرافات سمجة ، تتداولها ألوف الأيدى ، ويقرؤها مَن يعى ، ومَن لا يعى ..

أما كان هناك « جهاز » غيور حصيف يتتبع هذه الأباطيل بالمحو ، فإن لم يستطع إزالتها من مواضعها ، وضع ألف علامة حمراء للتحذير منها ، والتنبيه إلى دخَلها وفسادها ؟

لقد كثرت هذه الكتب السفيهة الزائفة حتى غلبت الثقافة الدينية الصحيحة ، فلا عجب إذا وجدنا الأجيال المتأخرة من المسلمين ، خلال القرون الأخيرة - أعنى من مئات السنين - يسيرون متعثرين لا تشدهم وجهة ، ولا تدفعهم قوة ، لأن الثقافة التى صنعتهم لا تنتج إلا نفوساً خاملة وعقولاً شائهة .

هناك إيمان ضرير لا يبصر الحياة ، ولا تسحره عجائبها ، ولا تستهويه أسرارها !

هذا الإيمان يمكن أن تنسبه إلى أى مصدر غير القرآن الذى يخلق الإيمان البصير ، لا الضرير . الإيمان الذى ينمو ، ويقوى بالتأمل فى الكون ، ومطالعة آياته ، والتعرف على خفاياه .

هناك إيمان جبان قاعد قد يفر إلى صومعة ، أو يحيا داخل قوقعة ، لا يجرؤ على الضرب فى الأرض ، ولا يستطيع مغالبة الأنواء ...

هذا الإيمان تستطيع أن تنسبه إلى أى مصدر إلا كتاب اللّه الذى قذف بالمسلمين فى كل فج ، ومن ورائهم هذا النداء : ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

هناك إيمان ذليل يعيش فى كنف المبادىء الأخرى ، أو يعيش على الفتات الملقى منها .

هذا الإيمان لا يستقيم مع منطق صاحب الرسالة الذى جعل اليد العليا خيراً من اليد السفلى ، وجعل المسلم يعطى ، ولا يأخذ .

---

(١) العنكبوت : ٥٦

فأين من ذلك مسلمون تُكرههم أوضاعهم إكراهاً على الانحناء والهوان ؟

إن وظيفة الثقافة فى خلق الفرد السليم ، والأمة الراشدة ، لا يمكن المراء فيها .

وثقافتنا الإسلامية القديمة تحتاج إلى تمحيص ينفى منها ، ويثبت على ضوء الكتاب المعصوم والسُنَّة الثابتة ..

ثم لا بد من نقد عليم برىء للطريقة التى سار بها العالَم الإسلامى من قرون خلت فى المعترك العالمى ، ومحاكمة لهذه الطريقة من الناحيتين العلمية والعملية : دون تهيب للساسة أو للعوام .

فإن الحق أكبر من هؤلاء وأولئك ! ووجه اللّه أبقى على كل حال ...

لقد مرت بالإسلام أربعة عشر قرناً حافلة بالشدة والرخاء ، والانتصارات والهزائم .

وهو الآن - بعد هذا التاريخ الطويل - يواجه أياماً حاسمة ، فإما اجتازها ، ومضى مسدد الخطو ، نبيل المقصد ، يهب للدنيا رشدها وخيرها .

وإما انتكس به أهله ، وخانوا أماناته ، فكانت الأخرى ، لا قدَّر اللّه .

وفى مثل هذه الأيام العصيبة نهيب مرة ثالثة ، بأُولى الألباب أن يهتموا بدور الثقافة فى إبراء الأكمه والأبرص ...

* * *

لقد أُلِّفتْ كتب حسنة فى هذا العصر لخدمة الإسلام وتجلية تعاليمه . وأحسب أنَّ لنا فى هذا الميدان بعض الجهد الذى نأمل فى جدواه .

وقد أبلى زملاؤنا ، من العرب والهنود وغيرهم ، بلاءً حسناً فى إخراج كتب جيدة سدت ثغرات علمية كثيرة ، ولكن الأمر أوسع وأخطر من أن تجدى فيه هذه الجهود المحدودة ...

إن الشباب الذين نستعيدهم لحظيرة الدين ، لا يعترضهم أحد عندما يقرأون الكتب الدينية القديمة فى العقيدة والتصوف والفقه .

إلا أننا نلقاهم بعد قليل وقد علقت بأذهانهم أفكار سقيمة عن القَدَر ، والتوكل ، وآيات الصفات ، وجدل المتكلمين الأوائل ، ومزالق المتصوفين المنحرفين ، وصور الفقه المذهبى ، وغير ذلك مما يضر ولا ينفع ..

والعلماء المتخرجون فى المعاهد الإسلامية الكبيرة يملكون - للأسف - ثروة مشوشة من هذا التراث المختلط . فهم يعرضون مع الإسلام بلايا ذهنية ورزايا نفسية ، تُؤخِّر أكثر مما تُقدِّم ...

ولا تزال عقول بعض المتدينين فى عصرنا هذا مشحونة أو متأثرة بقضايا أثارها طول الفراغ ، أو الترف العقلى أيام العباسيين والمماليك ...

ولقد قمتُ بوضع هذا الكتاب للناس مستهدفاً أمرين :

١ - إثارة العقل والضمير بأشعة الوحي ، ومعالم النبوة ، متحرياً الحق جهدى ، ومتلقفاً الحكمة حيثما وُجِدت ، وماحياً الشُبَه فى صمت ما استطعت .

٢ - تبديد الغيوم التى تراكمت خلال قرون الضعف فى تاريخنا . وتوقيف القراء على خبيئها حتى لا يضطربوا إذا عرضت لهم يوماً ..

وقد سبق أن قمت بقريب من هذا الجهد فى كتابى « الجانب العاطفى فى الإسلام » وإن كان البحث هنا أطول نَفَساً ، وأوسع رقعة ...

وأعتقد أن خدمة الثقافة الإسلامية لا تزال مجالاً قليل الرواد كثير الأعداء . مع أن حالة المسلمين تستدعى جهود العشرات والمئات من المفكرين المخلصين .

محمد الغزالى

* * *